الحرب الأهلية

استمر الرسل الراكبون ظهور الخيل في مهمتهم وهي ربط روما بأقصى أجزاء الإمبراطورية، فقد كان البريد الإمبراطوري في أعلى درجات التنظيم وكانت المراحل المختلفة مزودة بخيول مطهمة مرتاحة تساهم في استئناف الرسل رحلتهم لتزويد والي بانونيا Pannonia العليا في أقل من عشرة أيام بأحدث الأخبار عما كان يجري من الحوادث في روما.

وكان سبتموس سيفيروس قد علم قبيل انتهاء الأسبوع الثاني من شهر كانون الثاني خبر الثورة التي أطاحت بكومودوس في رأس السنة لعام 193م. وأعلن للفرق العسكرية التي كانت تحت قيادته هذا النبأ وأن بيرتناكس أصبح إمبراطورهم ودعاهم لحلف يمين الولاء للحكومة الجديدة. وكان الجنود المتمركزون على ضفاف الدانوب يختلفون عن الحرس البريتوري في روما وذلك لأنه لم يكن لديهم أي سبب للغضب بسبب التغير الجديد. فقد كان كومودوس مجرد اسم بالنسبة إليهم. ولكنهم كانوا يعرفون بيرتناكس شخصياً وقد أسروا له بالحب والاحترام وعرفوه في تلك الأيام التي كان يقود المعارك فيها باسم الإمبراطور ماركوس اوريليوس. وكان سبتموس يعتمد على ولاء جنوده وولاء حكام الولايات المجاورة بما فيهم أخوه سبتموس غيتا Geta في موزيا السفلى Moesia قرب مصب الدانوب. وقد ارتاح سبتموس إلى تلك الإجراءات التي سار عليها لاتيوس وأصدقاؤه بعد تنظيم المؤامرة ضد كومودوس، حيث ملؤوا المراكز الحساسة في الدولة برجال يشاطرونهم وجهات نظرهم.

بقيت الأخبار مشجعة طوال الأشهر الثلاثة الماضية، التي شهدت نجاح الإمبراطور الجديد في تخفيف حدة توتر الحرس البريتوري والحيازة على تأييد ودعم مجلس الشيوخ. وقد شعر سبتموس بالارتياح والرضا عندما سمع أن بيرتناكس قد رفض تنصيب ابنه في رتبة القيصر أو ولي عهد الإمبراطورية وكان واضحاً أن ذلك المركز ظل شاغراً تنفيذاً للاتفاق بانتظار إعطائه لسبتموس نفسه، حيث سوف يتم إعلان ذلك على وجه التحديد في شهر نيسان أثناء أعياد الباريليا Parilia مع عدد من الإصلاحات التي كان بيرتناكس ينوي تنفيذها. وكان سبتموس ينتظر أن يُستدعى إلى روما حيث سيستلم وظيفة ذات قيمة إلى جانب

الإمبراطور، وإن هذا هو آخر شتاء سوف يقضيه هو وجوليا في جرانتوم Granuntum.

ولكن ظهر عليه القلق أخيراً فقد حلم حلماً استولى على خياله مدة من الزمن وهو يشبه تلك الأحلام التي كان يراها في لوجدونوم Lugdunum. فقد رأى كأن بيرتناكس كان راكباً على حصان مطهم يسير على الطريق المقدس في روما وكان هذا الشارع المزدحم يصل إلى (الفورم) ورأى أن الحصان رمى بيرتناكس من على ظهره على مدخل الفورم، وبعد ذلك نزل الحصان منحدراً على قوائمه مما سمح لسبتموس بركوبه بسلام وكان الناس في تلك الأزمنة يؤمنون بقيمة بعض الأحلام كتنبؤات عن الغيب. وكثيراً ما كان بعضهم يدعم تلك الأحلام بقصص يؤلفونها تتناول الأحداث بعد حدوثها. ففي هذه الحالة، كان هذا الحلم يعبر عن تجربة موثوقة محفوظة في ذاكرة سبتموس. وعندما أصبح إمبراطوراً وضع تمثالاً تذكارياً في أحد شوارع روما في المنطقة نفسها التي حدث فيها الحلم الذي رآه في كارنونتوم Carnuntum.

وفي الأسبوع الأول من نيسان تواردت الأخبار التي أكدت أسوأ الاحتمالات والمخاوف وهي مقتل بيرتناكس وبيع منصب الإمبراطور بالمزاد العلني لديويوس وهذا مما زاد في حزنه وغمه لخسارته أحد أصدقائه المخلصين. وقد شاطره الحزن جميع الضباط ورجال الفرق العسكرية تحت قيادته، وعندما ناشدهم المساعدة للانتقام لبيرتناكس استجابوا له بحماس شديد. وكان بينهم بعض المحاربين الأشداء الذين حاربوا تحت قيادة بيرتناكس واحترموه لشدة عدالته وفضائله، وحتى أولئك الذين لم يكن بيرتناكس بالنسبة لهم سوى إمبراطور كان يسكن بعيداً في روما، فقد اجتُذِبَ هؤلاء للمغامرة التي كانت واعدة بالإثارة والربح. وقد شعر الجميع بالاحتقار والازدراء للحرس الإمبراطوري المدلل.

ولكن ما سبب لهم الصدمة الكبرى هو عملية البيع بالمزاد العلني. إذ بالنسبة لعقولهم البسيطة كانت وظيفة الإمبراطور ذات قداسة لا يمكن تدنيسها. وكانوا جميعاً مستعدين لإعلان سبتموس إمبراطوراً، وقد قبل سبتموس ذلك مع إبداء بعض التحفظ والإحجام فالثوب الأرجواني كان من حقه طبعاً. فلو عاش بيرتناكس لَعَيَّنَه بشكل أكيد وليَّ عهد للإمبراطورية.

أرسلت الرسائل إلى حكام الولايات المجاورة تطلب إعلان ولائهم للإمبراطور الجديد سبتموس سيفيروس. وكان الكثير من هؤلاء الحكام من أعوان لاتيوس الذين اختارهم لتأييد ودعم المؤامرة ضد كومودوس. والآن عندما سمع هؤلاء بوفاة بيرتناكس قبلوا سبتموس سيفيروس دون قيد أو شرط. وقد أرسلوا أجوبة مشجعة واعدين بالتعاون للقضاء على المغتصبين الطغاة في روما، وبدأت تتجمع الحملة التي سحبت من رجال الفرق العسكرية المتمركزة على الحدود من البحر الأسود على بحر الشمال.

وبينما كانت تلك الفرق تتجمع سمع سبتموس عن وجود منافس له وهو بسينيوس نيجر Pescenius Niger حاكم سوريا. وقد بدا كما لو أن التاريخ سيعيد نفسه وأن أحداث عام 69 ستعود للظهور حينما وجد أربعة أباطرة في الإمبراطورية الرومانية. وكان نيجر Niger يشبه سبتموس في أنه من طبقة متوسطة وكان أكبر منه سناً فقد كان في منتصف الخمسينيات من العمر ويشبه في حياته بيرتناكس إذ أنه قد ظهر من أصل وضيع وتقلد سلسلة من المناصب الرفيعة الشأن في الجيش، وقد تقلد منصباً عسكرياً قيادياً في غاله عام 186 عندما كان سبتموس حاكماً وقاضياً في لوجدونوم Lugdunum واشترك كلاهما في إخماد حركة قام بها بعض سكان الصحراء في تلك الولاية. وقد كان سبتموس معجباً بما أبداه نيجر من البراعة في إدارة تلك العملية العسكرية وليس هنالك من سبب يجعلنا نعتقد أنهما اختلفا بعد ذلك، أو أن نيجر كان مطلعاً على أسرار المؤامرة التي تورط بها سبتموس وأصدقاؤه فيما بعد في روما. ولم يكن مديناً في تعيينه في وظيفته في سوريا للاتيوس بل إلى أحد المقربين في القصر الذين كان كومودوس يتبع نصائحهم. وقد فوجئ هذا أيضاً بالحوادث التي حدثت في يوم رأس السنة عام 193 ويصفه ديو بأنه كان بليداً ذا قدرة محدودة وليس هذا مخالفاً للصفات التي يتمتع بها أي جندي يقوم بواجباته العادية مطارداً العصابات في غاله، ولكن يصبح هذا الوصف مخالفاً إذا كان ذلك الشخص يود الاستيلاء على السلطة في الدولة ويظهر أن مواهبه المتواضعة كانت أكثر فائدة له فهي أداة طيعة للحصول على المصالح المهمة. وقد لفت اسمه الأنظار عندما سمع في المظاهرات التي قامت في روما تدعوه للمجيء لمعاقبة ديديوس والحرس البريتوري ولم تكن تلك الجماهير لتختار ذكر اسم ذلك القائد المغمور في سوريا ما لم تكن الفكرة قد اختمرت في رؤوس الجماهير قبل زمن. فقد كانت الولايات الشرقية التي اعتمد عليها نيجر لتأييده أغنى ولايات الإمبراطورية، فأساطين الثروة هناك أرادوا اختيار إمبراطور يروق لهم وإن كان الثمن هو الحرب الأهلية.

عندما وصلت تلك الأخبار إلى سبتموس أصبح همه الأول والأخير الاطمئنان إلى أن الحرب ستكون مبارزة بينه وبين نيجر فقط، ولم يكن ليسمح بتدخل شخص ثالث. كان الحاكم الوحيد الذي خشي سبتموس منافسته هو كلوديوس البينوس Albinos حاكم بريطانيا، وكان قائداً قوياً ليس لضخامة القوى العسكرية التي كانت تحت قيادته فحسب، بل بسبب نبل أصله ومحتده ونفوذه الهائل في مجلس الشيوخ. وقد كتب له سبتموس حالاً مؤكداً له أنه سوف يعينه ولياً لعهد الإمبراطورية إذا امتنع عن التدخل في الصراع القادم. وقد أتى الجواب حسب رغبة سبتموس، فقد وعد هذا بعدم التدخل والبقاء كمتفرج.

وفي هذه الأثناء بدأ سبتموس زحفه على روما على رأس جيش استطاع جمع شتاته من جميع الفرق المتواجدة. وكانت هنالك عدة فرق لا تزال في طريقها إليه ولم يكن راغباً في انتظارهم؛ فالكسل لم يكن من شيمه ولا من طباعه. هذا وقد

عاش طوال تلك المدة في كسل نسبي وترقب في أقاصي حدود الإمبراطورية يراقب الحوادث الحاسمة التي كانت تحدث في روما، وقد كان يشعر بأنه في سباق مع نيجر لذلك أسرع في الحركة فحثَّ رجاله على السير بسرعة لدرجة أنهم كانوا ينامون ليلاً دون خلع دروعهم من على صدورهم وكان يقاسمهم همومهم ومشاقهم، وينام كما ينامون وفي أقل من شهر كان الجيش على رأس بحر الادرياتيك ودخل إيطاليا.

لقد بدا أن مجهودات وسرعة سبتموس لم تك عبثاً وأنها قد أثمرت، فقد كان نيجر لا يزال في أنطاكية وهي مركز تجمع جيوشه في سوريا. وكان يستعد على مهل وقد شجعته التقارير التي كانت ترد إلى مسامعه من روما عن الغربة التي كانت تحيط بديديوس وعن المظاهرات التي كانت تقوم في روما لتأييده، بحيث أصبح يعتقد أن الثوب الأرجواني أصبح في متناول يده. لذا لم ير أي حاجة تدعوه للسرعة وإن كان يعلم وجود منافس له في شخصية سبتموس، إلا أنه لم يدر أن الفرق العسكرية التي كانت متمركزة في بانونيا قد أوشكت على الوصول إلى روما.

تلقى ديديوس نبأ غزوة سبتموس وهو في حالة من الذعر فقد كان الأعداء يحيطون به من الداخل كأعضاء مجلس الشيوخ الذين عز عليهم خرق حقوق المجلس الدستورية وحنقوا عليه لاغتصابه الثوب الأرجواني، وكان حوله شعب هائج مائج أظهر احتقاره لبطل المزاد العلني في عدة مناسبات. ولاسيما في المظاهرات التي كان ينظمها عملاء نيجر وحتى الحرس البريتوري بدأ يكرهه فهو لم يدفع ما وعد به من النقود عدا قسط صغير على الحساب. ولكي ينال بعض الشعبية في المخيمات أمر بإلقاء القبض وقصاص جميع من له علاقة بمقتل كومودوس الذي كان الجنود يحنون حنيناً مرضياً إلى أيامه وهباته السخية. وهكذا فقد سحبوا لاتيوس وجلبوه من مكان خلوده للراحة والهدوء وأعدموه وهكذا فعلوا بمارشيا. فلم تعد هذه الفتاة الأمازونية العارية التي تزين الختم الإمبراطوري ولم تعد الحامية المتحمسة للمسيحيين، ولكنها أصبحت بالنسبة لديديوس إحدى المتآمرين الخطرين ولكنها كانت لا تزال تندب حظ زوجها التعس الذي فقد حياته في الدفاع المستميت عن بيرتناكس. وقد أضاف ديديوس إلى ضحاياه بعض الأطفال الذين ضحى بهم ليتوسل إلى آلهة العالم السفلي العون والمساعدة.

وفي أثناء ذلك ظل سبتموس مستمراً في تقدمه دون أي عائق عبر الأراضي الإيطالية. فقد ظلت تلك الأراضي سالمة من أي حرب طوال قرن من الزمان. وكانت المدن الإيطالية غير معتادة على رؤية جيوش أجنبية غازية، لهذا أرسلت رسلاً لمقابلة سبتموس وطلبت الوصول إلى اتفاق بينه وبينهم حسبما يريد. وأما ديديوس فقد استحصل من مجلس الشيوخ على إعلان سبتموس عدواً للشعب مع تعيين خليفة يحل محله كحاكم لبانونيا العليا. ولكن

هذه كانت مجرد مظاهر فارغة لعدم وجود قوة لتنفيذها. وقد عمدت كتيبة من الحرس البريتوري استخدمت جزءاً من الأسطول لقطع طريق مواصلات الغازي ولكنها فشلت، وذلك لأن بحارة الأسطول انضموا إلى سبتموس وعاد رجال الحرس البريتوري بسرعة إلى روما، هذا وقد أصبح رجال الحرس البريتوري عاجزين عن القتال الفعلي نظراً لفترة الراحة والاستمتاع التي كانوا يقضونها في المخيمات دونما تدريب أو قتال.

ولم يصب ديديوس أي قسط من النجاح في مسعاه لاغتيال سبتموس على يد شرذمة من رجال مخابراته - أي البوليس السري - إذ عندما رأى هؤلاء النظام السائد في جيش سبتموس والحراسة المشددة لشخصه، فقدوا صوابهم واعترفوا بمهمتهم التخريبية وطلبوا العفو والغفران من سبتموس وانضموا إلى رجاله، وأصبحوا يعملون في خدمته وحالما تقدم جيش سبتموس نحو روما اتخذت الترتيبات السريعة الجنونية لصد الهجوم. ويصف ديو الذي كان حاضراً الهزء والسخرية التي أثارها ديديوس عندما جلب الفيلة من السيرك ووضع أبراجاً فوق ظهورها ثم أدخل المصارعين المسلحين والمجالدين داخل تلك الأبراج. ولم تكن الفيلة قد اعتادت تلك الحمال فوق ظهورها لذلك بدأت تفر بشكل مذعور فسقطت الحامية التي على ظهورها إلى الأرض. وقد نفذت خطة أخرى لم تقل في فشلها عن الخطة السابقة وهي إرسال موكب من عذارى فستا وهن الفتيات المنذورات للنار المقدسة وهن أكثر المؤسسات الرومانية احتراماً وتبجيلاً في مهمة إلى الغزاة لإيقاف الغزو وذلك بالتوسل إليهم واللجوء إلى العاطفة الدينية. ولكن الكهنة رفضوا هذه الفكرة خوفاً من انفلات الطهارة والعفة لدى جنود الفرق البانونية عند رؤية تلك الفتيات.

ولشدة يأسه وفشله في اغتيال خصمه سبتموس عرض ديديوس على مجلس الشيوخ استقالته ورشح السياسي القديم المحترم كلوديوس بومبيانوس Pompeianus شريطة أن تحفظ عليه حياته. وكان هذا هو العرض الثاني الذي قدمه لكلوديوس بومبانوس وقد رفض كلوديوس هذا الطلب بحزم، كما رفضه عندما عرضه عليه بيرتناكس ليلة عيد رأس السنة الشهيرة. وأخيراً انتعش الأمل في قلب ديديوس حالما اقترب سبتموس من أبواب روما. فدعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع واقترح قسمة الإمبراطورية إلى قسمين: النصف الأول يكون تحت حكمه والنصف الثاني تحت حكم الشخص الذي أعلنه مجلس الشيوخ عدواً للشعب. ولم يكن هنالك من حاجة لمناقشة المجلس هذا الاقتراح فقد أعلن سبتموس أنه يطلب جميع الإمبراطورية ولا يقبل أن يقاسمه في ذلك أحد. وهكذا دخلت جيوشه المدينة دون توقع، أما الحرس البريتوري فقد شعروا بضعفهم وقلة عددهم فانضموا إليه. وخضع مجلس الشيوخ للأمر الواقع فحكموا على ديديوس بكل راحة ضمير بالإعدام.

أُرسل ضابط إلى القصر لتنفيذ حكم الإعدام فوجد ديديوس مكوماً فوق ذاته، وكانت آخر كلماته التي دونت «ماذا فعلت من الشر؟ ومن ذا الذي قتلته يا ترى»؟.

لم يكن لديديوس أي دور في قضية مقتل بيرتناكس ولكنه مسؤول عن قتل كثير من ذوي الرتب قليلة الأهمية في سبيل تثبيت مجده وعظمته الزائفة. وقد استلمت زوجته وابنته اللتان حرضتاه على الاشتراك في المزاد العلني جثته لدفنها.

وهنا أسرع مجلس الشيوخ في تحية سبتموس سيفيروس كإمبراطور وفي التكفير عما بدر منهم من مجابهات، بما فيها تلك الوصمة التي ألحقت به اسم عدو الشعب بإيعاز وإطاعة لأوامر ديديوس، ولكن سيفيريوس كان مستعداً للتغاضي عن كل هذا، فقد كان حاد الطباع وعند الحاجة كان لا يتورع عن استعمال منتهى الشدة والعنف ولكنه لم يكن حقوداً بطبيعته وكان يفضل المصالحة على الانتقام. وقد ظل مخلصاً ووفياً لأصدقائه واهتم بمجازاة كل من ساعده على الانتصار خير جزاء. وقد شمل هذا الجزاء عدة رجال من مجلس الشيوخ وهم مؤيدو بيرتناكس السابقون، والذين اعتبروه وريث بيرتناكس الشرعي وقد اختار اثنين منهما صهرين له وزوجهما ابنتيه من زوجته الأولى. وكانت البنتان تعيشان في إيطاليا، حيث كانتا معرضتين للخطر أكثر من أخويهما ولدي جوليا اللذين كانا يعيشان في أمان مع والدتهما في كارنونتوم، فقد تعرضت هاتان البنتان للخطر في الحوادث التي تلت مقتل بيرتناكس وقد اتبع سبتموس تلك الخطة التي كانت متبعة في تكتيك الحرب الأهلية والتي استعملها في نزاعه مع نيجر وهي الإمساك بأطفال خصمه واعتبارهم رهائن. وقد كان ديديوس مشغولاً جداً فلم يستطع الإمساك ببنات خصمه كما هي العادة، ولذلك خرجت هاتان البنتان من مخبئهما لتزفا في أجمل حفلة عرس جرت في روما ولم يسمع الكثير عنهما ولا عن زوجيهما. ولكنهما لو عاشتا عمراً طبيعياً لشهدتا تاريخ تلك الأسرة التي أنشأها والدهما من البداية إلى النهاية.

وحتى أولئك الأعضاء في مجلس الشيوخ الذين كانوا من الخصوم المعروفين لسبتموس لم يصبهم أي عقاب منه سوى دفع بعض الغرامات، وقد قدرت تلك الغرامات بشيء من الزيادة. وحدث أن اتهم أحد أعضاء مجلس الشيوخ بالمراسلة مع نيجر فدافع هذا عن نفسه قائلاً إنه كان يقصد التخلص من ديديوس ولم يكن يهمه إذا قام سبتموس أو نيجر بهذه المهمة. وكانت صدفة من الصدف أن اختار هو المراسلة مع نيجر. وقد وجد سبتموس أن هذا الرجل كان مذنباً بنسبة 50% فقط لهذا حذف نصف الغرامة المترتبة عليه.

ولكن سبتموس لم يظهر أي رحمة تجاه قتلة بيرتناكس. فقد تعرف على الرجال الذين اشتركوا في الشغب في القصر وأُعدموا جميعاً. وعامل سبتموس بقية الحرس البريتوري بحذر. كان قد قرر أن يكون سيد روما دون منازع وأن

يضع حداً لوقاحة الجنود والعساكر الذين كانوا يدعون أن لهم الحق في تنصيب الإمبراطور حسب أهوائهم ولكنه بالوقت نفسه كان يرغب في تجنب أي نزاع مفضوح مع قوة مسلحة تحتل المخيمات المحصنة. ولهذا فقد دعا جميع رجال الحرس البريتوري إلى اجتماع في الأرض العراء الواقعة بين المخيمات والمدينة وأعلن أن هذا الاجتماع هو احتفال بنصره. كان هؤلاء ينتظرون على مضض قرار الإمبراطور بالنسبة لوضعهم وعندما وصل إليهم الأمر أجابوا بالموافقة والارتياح، إذ إنهم اعتبروا ذلك بمثابة إرجاعهم إلى الحظيرة ليؤدوا أدوارهم في الحياة العامة. وقد ظهروا كما كانت العادة في مثل تلك المناسبات في الملابس الاحتفالية دون حمل أي أسلحة سوى أسلحة الزينة التقليدية. ثم اصطفوا أمام منصة الإمبراطور حيث وقف سبتموس وخاطبهم.

لم تكن في كلماته أي إشارات مشجعة وكان صوته يدل على الغضب حالما استنكر خيانتهم لإمبراطورهم صديقه بيرتناكس ووقاحتهم في وضع منصب الإمبراطور في المزاد العلني والعنف الوحشي الذي فرضوه على المواطنين المسالمين في عهد الإرهاب. وقد أصغى أولئك الجنود وعيونهم مثبتة ومتجهة نحو الإمبراطور ولم يلاحظوا ما كان يحدث خلف ظهورهم حيث اقترب جنود الإمبراطور من الفرق البانونية Pannonian legions وأحاطوا بهم من جميع الجهات. وحالما أنهى سبتموس خطابه تقدم جنوده وهم يلوحون بسيوفهم ورماحهم المشرعة، ولم تحدث أي معركة ولم يصب أي واحد منهم بأذى، ولهذا فقد خضع جميع رجال الحرس البريتوري واستسلموا دون مقاومة، بينما نزع الجنود شاراتهم العسكرية التي تدل على رتبهم. وعندما شعروا بالعجز وقفوا صامتين ينتظرون حكم الإمبراطور عليهم فأخبرهم أنه سيبقي على كل واحد منهم حياته شريطة ترك روما في الحال، وعدم الاقتراب مسافة مئة ميل من الأسوار. عندها صرفهم فهربوا من المكان بسرعة.

حاول بعضهم الرجوع إلى المخيمات ولكنهم مُنعوا، فقد احتلت كتيبة من الفرق العسكرية القلعة عندما كان الجنود يستمعون إلى خطاب الإمبراطور واستولت على الأسلحة الموجودة هناك.

لقد اكتسب سبتموس شعبية وحباً لدى أهالي روما بعد تخليصهم من وقاحة وعربدة الحرس البريتوري. فالأصوات التي كانت تدعو نيجر لإنقاذ روما تحولت فجأة لتكيل المديح إلى المنقذ الجديد الذي يسيطر على قوة ساحقة، والذي استطاع نفي رؤوس الشر وعزل الألعوبة التي ابتدعوها وإرجاع السلم والنظام إلى نصابه ولقد أظهر الكثيرون في مجلس الشيوخ الارتياح التام ولاسيما أولئك الذين كانوا يحتقرون ديديوس وهالهم وساءهم ذلك الاضطراب وتلك الفوضى. وحتى أولئك الذين كانوا من حزب ومؤيدي نيجر والذين كانت لهم بعض المصالح في الولايات الشرقية اكتفوا بالسكوت شاكرين موقف الاعتدال والرحمة الذي بدا من الإمبراطور والذي شملهم أيضاً. وقد ساعد على إرضاء أعضاء مجلس الشيوخ

موقف الصداقة والود ما بين سبتموس وألبينوس حاكم بريطانيا الذي وعده سبتموس بولاية عهد الإمبراطورية. وقد كان هذا سبباً في حصول (ألبينوس) على الاحترام والتبجيل لمساعدته في إحلال السلام وأصبح علماً من أعلام النظام في مجلس الشيوخ.

بقي سبتموس في روما ثلاثين يوماً من حزيران حتى تموز عام 193م. وقد أشرف بنفسه على مراسيم جنازة بيرتناكس التي أجريت بكل وقار وحزن واحترام وأرجع جميع الوزراء والموظفين الذين عزلهم ديديوس. وملأ الوظائف الشاغرة في الدولة برجال من أتباعه الذين أثبتوا ولاءهم في الاضطرابات الأخيرة. وبعد أن طرد الحرس البريتوري إلى آخر رجل أعاد تأسيس هذا الحرس بشكل جديد. فبعد أن كان الانخراط في هذا الحرس محصوراً بأبناء الأسر المرموقة في إيطاليا الذين تمتعوا برواتب ضخمة وامتيازات كبيرة حسدهم عليها بقية أفراد الجيش، أصبح الحرس البريتوري الجديد الذي وُضع في المخيمات ليس من الإيطاليين أبداً بل من جنود مختارين من الفرق العسكرية المرافقة له، مثلاً من بانونيا وغيرها من سكان الحدود. وقد كان يأمل أن يعمل هؤلاء على تنفيذ واجباتهم بإخلاص وبساطة مادامت العادات المدنية لم تفسدهم. وقد ظل سلوكهم جيداً في أول الأمر ونال استحسان الجميع ولكنهم سرعان ما اعتادوا على الحضارة ونسوا الخوف والتهيب منها، ثم ما لبثوا أن استجابوا للإغراءات ومشوا على طريق من سبقوهم من اجتراح أعمال الفوضى والغطرسة، وإساءة استعمال امتيازاتهم. وكانت لهجتهم الغريبة ومظهرهم يسيء إلى الجماهير في روما.

وبعد أن عمل كل ما في وسعه لاستقرار الأمور أثناء غيابه، قاد سبتموس جيوشه راجعاً حول رأس بحر الأدرياتيك ليتم سيطرته على الإمبراطورية. فعلى الرغم من نجاحه في روما واعتراف مجلس الشيوخ به، إلا أنه كان عليه تصفية حساباته مع نيجر منافسه الذي أصبح مستعداً للعمل هذا. وإن مصر التي كانت تمد روما بالقمح كانت تحت سيطرة نيجر وكان نيجر هذا يستعد لغزو أوروبا بعد أن حشد جيشاً من سوريا ومن الولايات الأخرى وعبر البوسفور لهذه الغاية. وقد جعل مركز عملياته الحربية في بيزنطة، تلك المدينة التي اختارها قسطنطين بعد قرن من الزمان لتكون عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وجعل اسمها الجديد القسطنطينية وكانت بيزنطة معقلاً ليس له مثيل في الشرق اشتهر بتحصيناته الضخمة. وقد بنيت على موقع يسيطر على جميع المضائق المجاورة. وهكذا انحدر سبتموس مع جيشه لمواجهة نيجر في ذلك المكان.

لا يعرف الكثير عما كانت جوليا تفعله في ذلك الوقت. ففي السنوات الأخيرة كان من عادتها مرافقة زوجها في حملاته وإن كانت حملات حربية، ولكن في أثناء زحفه إلى روما في ربيع عام 193 كان الوضع مقلقلاً، وكان وجودهما ربما يشكل عبئاً على سبتموس ولاسيما وأن معها طفلين واحد في الخامسة والثاني في الرابعة، ولكن بعد كسر ديديوس وقبول سبتموس لقب

الإمبراطور الذي قدمه له مجلس الشيوخ، منح سبتموس زوجته لقب أوغسطا الذي تحمله زوجة الإمبراطور عادة، وسُكَّت النقود التي تمثلها بشكل الآلهة فينوس. وقد كانت معه في روما لتقاسمه الشرف. وعندما ترك روما متجهاً إلى الشرق لحقت به ومن المحتمل أنها سلكت الطريق البحرية المريحة. فقد أصبحت بلدها سوريا الآن بيد العدو ولم تعد مأمونة ولكن كان هنالك عدة مدن أخرى مستعدة للترحيب بها وإكرامها، وكان هنالك رجال بارزون من مواطني (ايليريا) و (تراكيه) من الذين كانوا يتوقون لنيل رضا وعطف سبتموس عن طريق استضافة زوجته وأهل بيتها الذين لم يقتصروا الآن على ولديها فحسب بل على زوجة نيجر وأطفاله. فأرسلهم إلى مكان أمين خارج سوريا. ولكن سبتموس اكتشف ذلك المكان وأرسل رجاله فأمسكوا بهم. وقد كان الشخص الذي أسرهم هو فولفيوس سبتيانوس Fulvus spitianus وهو صديق قديم منذ الطفولة للبتيس Leptis الذي سوف نتكلم عنه بالتفصيل فيما بعد. ولما كانت الرهائن تحت رعاية جوليا، لذلك عوملوا معاملة حسنة، كما لو كانوا أهلها وأقاربها. ومع ذلك فلم يكونوا في وضع يحسدون عليه، فقد كان سبتموس ينوي استعمالهم كوسيلة تجبر نيجر على تغيير رأيه، بعد أن وعده أنه إذا ترك القتال فسوف يدعه يعيش في أمان وراحة. ولكن نيجر كان رجلاً عنيداً بطيء الحركة ولكنه كان متماسكاً وشديداً في الوقت الذي يقرر فيه العمل، ولهذا فقد رفض طلب سبتموس وأعلن أن شروطه هي أن يتقاسم الإمبراطورية مع سبتموس، ولكن هذا العرض كان غير وارد بالنسبة لسبتموس. وقد كانت زوجة نيجر تعرف زوجها تماماً فلم تؤمن أن وضعها الخطر سوف يؤثر فيه ليلين في المفاوضات، فقد كان كبرياء زوجها وتمسكه بمبدئه بصلابة تمنعه من الالتفات لسلامتها إذ طالما صرح أن زوجته ما هي إلا واسطة لإنتاج الذرية ويمكنه تغييرها بكل سهولة.

ولكن ها هي زوجة نيجر محفوظة تحت رعاية جوليا بينما ضغط سبتموس بكل ثقله لإحراز النصر النهائي في المعركة. فحاصر بيزنطة ولكن تحصيناتها كانت قوية لا يمكن احتلالها بسهولة. ولم يرغب سبتموس في البقاء طويلاً هناك. ولهذا ترك قسماً من جيشه يحيط بالمدينة وسار مع الباقين إلى آسيا بحراً حيث كان نيجر وجيشه في انتظاره. وفي المعارك التي تلت كان سبتموس هو المنتصر. ومع أن تجاربه في الشؤون العسكرية كانت قليلة، إلا أنه استطاع اكتشاف مواهب الآخرين فاختار القواد الأكفاء لمساعدته. فعمد هؤلاء إلى طرد العدو جنوباً عبر آسيا الصغرى بينما كانوا يحتلون جميع المدن في طريقهم على الساحل. وكان التنافس بين هؤلاء القواد شديداً جداً بحيث كان كل منهم ملتزماً بإلقاء القبض على نيجر. ومع ذلك فقد تم النصر أخيراً وفي نهاية العام فر نيجر وجيشه عبر جبال طوروس إلى سوريا. وعندها انسحب سبتموس لقضاء الشتاء

في مدينة بيرنثوس Perinthus على بحر مرمره، حيث وافته زوجته جوليا. وفي 4 نيسان عام 194 احتفلا بعيد الميلاد السادس لولدهما الأكبر.

وفي هذا الوقت أصيب نيجر بصدمة عند انفصال عريف مصر عنه وهذا ما كفى سبتموس مؤونة الجهد لإرجاع الحنطة إلى روما. وحدثت تمردات ضد نيجر في عدد من المدن السورية لاسيما تلك المدن التي تدين لأسرة جوليا بالولاء. وحالما أصبحت الممرات مفتوحة وسالكة في الجبال أرسل سبتموس جيشه لغزو ذلك السهل السوري الخصب أمامه، وقد جمع نيجر رجاله في محاولة يائسة لإيقاف سبتموس وحدثت المعركة الحاسمة في ايسوس Issus على رأس خليج الاسكندرون. وهذه المدينة تشتهر أنها شهدت المعركة التي فاز بها الاسكندر المكدوني ضد الفرس قبل خمسمئة عام تقريباً. وكانت نتيجة المعركة الانكسار الساحق لنيجر وتبعثر جيشه وهرب جنوده إلى أنطاكية. ولكنَّ مطارديه لحقوا به وقطعوا رأسه وجلبوها إلى سبتموس الذي أرسل الرأس إلى بيزنطية التي كانت لا تزال محاصرة ليثبت للسكان أن قائدهم وزعيمهم قد مات، وأن قضيتهم التي يحاربون لأجلها خاسرة.

لم يقتنع أهالي بيزنطية بالتسليم حتى بعد رؤية رأس ملكهم المقطوع، ولكن موت نيجر اعتبر نهاية للحرب الأهلية مما أثلج صدور العالم الروماني. فقد توالت الأزمة بعد الأزمة في السنوات السابقة الأمر الذي كان يهدد سقوط ذلك النظام الذي تأسس منذ عهد طويل، وذلك الوضع المستقر المألوف منذ زمن طويل أسبق مما يتذكره ذلك الجيل من البشر الذين يعيشون في منطقة ممتدة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي. ولكن نتيجة معركة ايسس قد بدت وكأنها قد طردت ذلك الكابوس. فها هو الإمبراطور يعود إلى سابق عهده وسابق سلطته دون منازع ويملك القوة الكافية لتأمين راحة السكان. ولكن القليلين حزنوا لمصير نيجر كما لو كان القليلون سيحزنون على سبتموس لو خسر المعركة. فالعالم الروماني لم يكن يهمه شخص الإمبراطور بل الاستقرار والحكومة ذات الكفاءة.

كان سبتموس نفسه حريصاً على تشجيع سمة التفاؤل؛ فقد امتنع عن ممارسة الأعمال الانتقامية. وهكذا ترك زوجة نيجر وأطفاله (الذين لم يعد له بهم من حاجة كرهائن) ليعيشوا في أمان شريطة ألا يشتركوا في الشؤون والسياسة العامة. وإن الشخص المسؤول الوحيد الذي أعدم كان عضو مجلس الشيوخ اسيليوس ايميليانوس Asellius Amilianus حاكم ولاية آسيا الذي كان يقود قسماً من جيش نيجر وقد وقع في الأسر أثناء العمليات الحربية واعتبرت حياته خطراً على الدولة. وكان سبتموس يعتمد على فرض الغرامات الباهظة لعقاب جميع الآخرين الذين قاوموه وكان يقال عنه إنه يفضل المال على الدماء.

إن الحيلة والذرائعية تؤلف حافزاً سائداً في التغيرات الإدارية. ولهذا فقد طرد مؤيدي نيجر ووضع مكانهم أفراداً من رجاله ومؤيديه. ففي سوريا وحيث كان نفوذ نيجر شديداً، ألغيت أنظمة الحكم القديمة وقسمت الولاية إلى ولايتين على كل واحدة منهما وال. وقد ساد الحزن والنواح في أنطاكية التي كانت تعتبر نيجر ابنها وإمبراطورها. وانتظر أهالي أنطاكية معاملة قاسية من سبتموس كالمعاملة التي قاسى منها بعضهم أثناء حكم نيجر. فقد كان نيجر قد أحرق لادوكيا (اللاذقية) وصُور ونهبهما عندما قامتا ضده. ولكن سبتموس لم يفعل شيئاً مادياً ضد أنطاكية بل تركها سالمة، ولكنه وجه إليها طعنة معنوية بأن نقل مركز الحكم منها إلى لادوكيا (اللاذقية) فأصبحت عاصمة لسوريا أثناء النظام الجديد.

وكان هدف سبتموس من سياسته الرحيمة إرجاع التناغم والتناسق للإمبراطورية حتى تتوحد جهود الجميع حوله من مجلس الشيوخ إلى الشعب إلى الجيش، ولكنه علق أكبر أهمية على الجيش، فلم يكن لينسى الدين الذي يدين به لجيشه المخلص الذي رفعه إلى السلطة بتأييده له. وكانت وصيته وهو على فراش الموت لأبنائه الاعتناء بالجيش وتفضيل مصالح الجيش على الجميع. وبالوقت نفسه أوضح للجميع (كما أظهر في معاملته للحرس البريتوري) أنه لا يجوز لأي إمبراطور أن يكون ألعوبة بين يدي الآخرين. وقد اهتم بتحسين أحوال الموظفين الذين يعملون تحت إدارته معاشياً ولكنه طلب مقابل ذلك الطاعة والولاء. ولقد حدثت أثناء حكمه بعض التهديدات بالتمرد ولكنه كان يعلم بخبرته كيف يخمد تلك التهديدات، وكان مزجه بين التسامح والشدة عاملاً على خلق جيش منظم مستعد لخدمته بولاء وتفان وإخلاص، فالجيش أداة يجب التعامل معها بمبدأ لين من غير ضعف وشدة من غير عنف. وعندما سقط الجيش تحت قيادة خلفاء ضعفاء أصبح مصدراً من مصادر التهديد لسلم العالم الروماني ولم يكن الخطأ من سبتموس بل كان الخطأ متأصلاً منذ أيام أغسطس الذي ربح لقبه كإمبراطور بعد فوزه في الحرب الأهلية التي كانت سائدة آنذاك، ولكن سبتموس كان يشبه أغسطس في امتلاكه شخصية قوية كافية لاستخدام الجيش وليس لخدمته ولتأمين إدارة متوازنة مستقرة في الدولة تخدم المصلحة العامة.

وإن صدف أن صدرت بعض الأحكام الجائرة من سبتموس، فالدافع لها كانت طباعه الشديدة التأثر فلا تزال فيه آثار ذلك الضابط الفتي الشاب الذي عُيِّن حديثاً في ليبتس Leptis في ليبيا، والذي عندما قابله أحد أصدقائه القدماء وعانقه في الشارع حكم عليه بالجلد. وحتى الآن عندما كان يميل إلى المصالحة كان يثور من كلمة يقولها أحد الفلاسفة أو الشاعر أوبيان Oppian وهو أحد أفراد تلك الحلقة الأدبية التي كونتها جوليا والذي رفض حضور حفلات النصر في ايسوس، ولهذا أمر سبتموس باعتقاله ونفاه إلى جزيرة ظل فيها ولم تستطع حتى جوليا، بما لها من نفوذ، أن ترجعه. كان سبتموس يعرف نقطة الضعف هذه الموجودة فيه لذلك

كان حريصاً على ألا تثيره التوافه، ولكنه لم يمارس أي ضغط على عواطفه عندما تكون القضية ذات أهمية وتستحق الغضب. ولكن ظهرت بعد قليل ظروف صعبة جعلته يثور بسرعة بحيث أصبح شديد الشبه بكومودوس في أقصى حالات توتره.

ظلت الحالة هادئة أثناء عام 195 ولم يعكر صفو الوضع سوى ذلك العناد الذي بدا من بيزنطة في تمنعها عن التسليم رغم موت نيجر. ولم يشأ سبتموس الرجوع إلى روما حتى يفرغ من قضية بيزنطية ويزيل ذلك الجانب من المقاومة في إمبراطوريته. وهكذا ترك جزءاً من جيشه لمتابعة الحصار، ثم قاد بقية الجيش إلى نهر الفرات وكانت حجته أن بعض القبائل العربية كانت تؤيد نيجر وأن بعض المنهزمين من جيش نيجر قد التجؤوا إلى تلك القبائل، ولكن غرضه الحقيقي كان تثبيت حدود الإمبراطورية حتى نهر دجلة، وكانت نتيجة هذه الخطة ذات أبعاد بعيدة إذ وفرت على الإمبراطورية فيما بعد كثيراً من الجهود والمتاعب، وكانت هذه المنطقة هي المنطقة الوحيدة في العالم حيث تتاخم حدود الإمبراطورية دولة ذات سيادة وقوة. فأثناء القرون الماضية تغلبت روما على منافسيها واحداً بعد الآخر، ابتداء من أهالي قرطاجة ثم السلوقيين ثم البطالسة خلفاء الاسكندر المكدوني ولم يبق أمامها سوى الفرس الذين ربحوا عدة معارك خاضوها ضد الجيوش الرومانية.

وكانت إمبراطوريتهم تمتد من منطقة ما بين النهرين إلى حدود الهند، وقد تأصلت قوتها منذ زمن الاسكندر المقدوني قبل قرابة أربعمئة عام. وكان الفرس أنفسهم قبائل رحل يعيشون في منطقة التلال حول بحر الخزر خضعوا لملوك فارس العظام مثل كورش وداريوس. وعندما هزم الاسكندر الفرس ومات ترك البلاد المفتوحة ليتقاسمها قواده، ولم يشأ الفرس الجدد (البارثيون) الخضوع للسلطة اليونانية. فقاموا بنزاع طويل الأمد تحت قيادة أحد قوادهم المدعو أرساسيد Arsaces وكان هذا قائداً موهوباً واستطاع ربح استقلالهم في بلادهم الأصلية. وفي السنوات التالية وحالما ضعف خلفاء الاسكندر وحل الخراب في إمبراطوريته مد البارثيون سلطانهم حتى جميع غرب آسيا، وهكذا خلقت الإمبراطورية البارثية تحت حكم الارساسيدية التي سميت باسم بطلها القومي ارساسيد.

وكانت تلك الإمبراطورية مزيجاً من عدة أمم خاضعة لها ومعظم تلك الأمم أعلى ثقافياً من البارثيين ومع ذلك فقد ظلت تلك الإمبراطورية متماسكة لعدة قرون بفضل عبقرية حكامها ومرونتهم؛ فالملك كان يدعى ملك الملوك وقد طلب الولاء والطاعة من رعيته ولكنه لم يظلم تلك الرعية فيما فرضه من ضرائب أو أوجبة من خدمة عسكرية، فقد كان يترك رعيته وشأنهم ويمتنع عن التدخل في ديانتهم أو عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية. إلا أن مرونة الحكم شجعت المشكلات. ولكن العصيان والتمرد لم يكن يحظى بالتأييد لدى الرأي العام والشعب وظهر خطر جديد فيما بعد، وهو تجديد الشعور الوطني في بعض الولايات الفارسية،

حيث نهض رجال الفرس القدماء ليجددوا عهد كورش وزركيس وداريوس ويزيلوا نير الحكم (البارثي) وقد أضيف الحماس الديني لتلك الحركة. وكان المتمردون من أتباع النبي زرادشت (زرواستر) وكانوا يعيبون على البارثيين تسامحهم مع منافسيهم.

كان الملك البارثي فولوجاسير الرابع Vologases IV مشغولاً في مشكلاته الداخلية هذه، فلم يستطع الالتفات إلى الشؤون الخارجية ولم ينتهز فرصة انشغال نيجر بحربه مع سبتموس سيفيروس وسحبه جيوشه إلى الشمال. وعندما أتى سبتموس بعد انتصاره إلى منطقة ما بين النهرين لم يظهر أي جيش (بارثي) لمقاومته. إذ ترك الأمراء المحليون للدفاع عن أنفسهم، وهكذا هزمهم الرومان بسهولة. وكان المناخ عدواً رهيباً لسبتموس أقسى من عداوة الخصم، فقد كانت معظم رحلته عبر الصحراء حيث قاسى الجيش من العواصف الرملية والعطش وعند وجود الماء كان الرجال يخافون شربه لنفورهم منه لأنه تجمع من المطر وله رائحته. حتى قام سبتموس نفسه بملء قدح من الماء وشربه ثم تبعهُ الآخرون. ففي شبابه في ليبتيس كان يعيش على مسافة من الصحراء الليبية وقد اعتاد على هذا النوع من الماء والآبار.

على الرغم من الأخطار والمنغصات رافقته جوليا في تلك الرحلة. فلم تكن الطرق تسمح بمسيرة العربات فسار سبتموس مشياً على الأقدام مع رجاله وكانت الوسيلة الوحيدة لمسيرة جوليا هي حملها على نقالة رفعها ستة رجال وأحياناً ثمانية، وكانت تلك النقالات تستعمل عادة في شوارع المدن وكانت مثل تلك النقالات أفضل واسطة للنقل.

وهي عبارة عن نوع من الفُلل ذي السقف ولها ستائر مزينة بشكل مريح يشعر المسافر بالاطمئنان والراحة. ولم تكن مثل تلك النقالات موجودة في منطقة ما بين النهرين، ولذلك فقد أحضرت لها نقالة خشبية لحمايتها من الشمس ولكن حماسها للحملة عوض عن افتقارها للراحة. وكان وجودها ونصائحها مفيدة في التعامل مع العرب المحليين الذين كان معظمهم قد أتى للحج في حمص إلى معبد ايلاجابال Elagabal وفي (نصيبين) وأثناء احتفال جرى احتفاءً بضم المناطق المفتتحة إلى الإمبراطورية الرومانية استلمت جوليا من الجنود لقب حامية المعسكر.

وفي خريف عام 195 وصلت الأخبار إلى سبتموس بسقوط بيزنطية بعد حصار دام سنتين إذ عندما نقصت المؤن قصت النسوة شعورهن لجدلها وعمل حبال تستخدم في السفن وآلات الحرب ونزعت التماثيل البرونزية من المعابد لعمل القذائف. وكانت أسوار بيزنطية من أقوى الأسوار في الإمبراطورية الرومانية، وهي أسوار أسطورية كما يقال، وكان هنالك سبعة أبراج ممتدة من بوابة تراقيه حتى البوسفور. وإذا اقترب إنسان من إحدى هذه الأبراج وصرخ كان الصدى يجيب من البرج الآخر ثم من التالي إلى النهاية حتى يصدر

الصوت عن جميع الأبراج السبعة. ولكن قوة هذه الأبراج وسمعتها لم تستطع الوقوف أمام جيوش سبتموس سيفيروس الذي كان قد قرر أن هذه القلاع لن تكون سبباً في تهديد مواصلاته. وقد أمر بهدم الأسوار حتى تلامس الأرض وأصبحت المدينة خراباً بمسارحها وحماماتها وأبنيتها العامة. ولكن في القرن التالي اختارها أحد الأباطرة لتكون عاصمة له وهكذا قدر لروما الجديدة أن تعيش وتزيد في أهميتها عن روما القديمة.

لقد كان استسلام بيزنطية سبباً لإزالة مبرر البقاء في الشرق. فلم يكن هنالك من ضرورة للإسراع بعمليات الحملة في ما بين النهرين وكان النجاح والتقدم من نصيبه فأضيفت مناطق جديدة للإمبراطورية. وإن توقف الأعمال الآن سوف يستأنف في المستقبل. فالمشكلات كانت تحيط بالملك (البارثي) في وطنه ولم يكن هنالك من دليل على تجدد تدخله في شؤون ما بين النهرين. هذا وإن القلق بدأ يساور نفس سبتموس حول الوضع الداخلي في الوطن بعد أن وصلته الإشاعات التي تقول إن مفاوضات كانت تجري بين بعض أعضاء مجلس الشيوخ الموتورين وبين القائد البينوس في بريطانيا. علم سبتموس أن له خصوماً في مجلس الشيوخ يعتبرونه من أصل إفريقي وذي زوجة سورية وإن هؤلاء يفضلون أن يروا ألبينوس إمبراطوراً حاكماً على أن يروه ولياً لعهد الإمبراطورية في المستقبل، وقد عثر على رسائل تفيد وتثبت أن هنالك أساساً مادياً لهذه الشكوك بوجود فكرة الانقلاب.

ولتعزيز مركزه ونفوذه أصدر سبتموس إعلاناً يصف به نفسه بابن ماركوس اوريليوس بالتبني، فقد كانت العادة أثناء السنوات المئة الأخيرة كما رأينا أن يتبنى الإمبراطور الحاكم شخصاً يعتبره وريث الإمبراطورية، ولكن لم تكن هنالك سابقة لِتَبَنٍ حدث قبل خمسة عشر عاماً بعد وفاة الإمبراطور. فلم يكن سبتموس مهتماً بالسمات القانونية؛ إذ كان يكفي بالنسبة إليه أن الميت لن يحتج والأحياء لن يتجاسروا بالاحتجاج. واستجابت جماهير الجنود لإعلانه هذا بحماس وقبلوه دون قيد أو شرط وريثاً شرعياً للأنطونيين. ولم يكتف بارتقائه إلى مصاف الأسرة الإمبراطورية فحسب، بل إن ابنه الأكبر الذي كان يدعى الآن باسيانوس Bassianus سوف يحمل اسم ماركوس اوريليوس انطونيوس.

إن هذا المركز والمقام الجديد لم يكن بذاته تحدياً لالبينوس Abbinus ومع أن سبتموس قد غير اسم ابنه، إلا أنه لم يطلق عليه أي لقب وبقي المجال مفتوحاً لتبني سبتموس لألبينوس كوريث له، ومع ذلك فقد ظل ألبينوس متحفظاً لا يخفي قلقه. كان بالحقيقة أكبر من سبتموس بسنة أو ما يقارب ذلك. وإن فرصته للحصول على منصب الإمبراطور كانت تواجهها منافسة ولد في السابعة من العمر وهو ينمو وسوف يصل إلى سن الرجولة في تلك الفترة. ولكن لم يكن وضعه يخلو من وجود بعض الإغراءات باستباق الأمور بمساعدة بعض الأصدقاء الأقوياء المخلصين في روما الذين ما فتئوا يحرضونه ويعدونه بالتأييد.

فقد كانت لـه شعبية في مجلس الشيوخ. وكان مثل سبتموس قد ولد في إفريقية ولكن كانت بينهما فروق واضحة وهي أن شجرة نسب ألبينوس تعود إلى أفضل الأسر الرومانية. وفي رسالة توصية يصفه الإمبراطور ماركوس اوريليوس بكونه مواطناً إفريقياً ولكن ليس به شيء من أفريقية. وكان مركزه في الهيئة الاجتماعية ومظهر النعمة البادي على محياه من محسنات ذلك النظام الجديد عندما كان يعمل بالتحالف مع سبتموس.

وكانت هنالك خلفية مشرفة تزيد في مقام ألبينوس وهي خدماته الممتازة في قيادة الجيش الروماني على نهر الراين والتي تُوِّجت بوظيفته ومركزه المرموق الحالي وهو حاكم بريطانيا. ولا نعلم كيف كانت هذه المنجزات تتصارع، وكيف عملت على شحذ وإثارة طموحاته. فقد كان رجلاً ذا ذوق وحس مرهف مع تطلعات تبز وتسمو فوق الوجود المادي وفوق الحروب والسياسة. فقد ألف قصيدة تعليمية حول فنون الزراعة بأسلوب فرجيل ومجموعة تدعى قصص ميليسيان Melesian Tales منقولة من مذهب أدبي يوناني تمتزج به الغرائز الشهوانية مع المزاج الشهوانية مع المزاح والفكاهة، ويروى عنه أنه كان في صغره يردد أقوال فرجيل «إنني أتخذ الأسلحة بجنون ولكن الأسلحة لا معنى لها». ومع ذلك فعندما اتخذ الأسلحة واختارها مهنة له أصبح قائداً عظيماً.

سرت الإشاعات أثناء حكم بيرتناكس أن ألبينوس قد تورط في المؤامرة التي أجهضت والتي قادها فالكو ولكن ما لبثت الأحداث أن تقدمت بسرعة، فلم يظهر دوره للنور وقد تغاضى سبتموس عن هذا الدور عندما عينه ولي عهد للإمبراطورية، فأخذ كثير من أصدقائه يدعونه للتوجه إلى روما واستلام السلطة في غياب سبتموس في الشرق، ولما سمع سبتموس بتلك الأخبار أسرع باختصار حملته الشرقية وتوجه إلى أوروبا. وفي طريقه قابله بعض الرسل الذين أفضوا إليه بأنباء زادت من قلقه وثبتت شكوكه حول ألبينوس. وعند وصوله إلى فيمينا كيوم Veminacium على الدانوب على بعد قرابة خمسين ميلاً جنوب بلغراد أصدر أمراً يعتبر كإعلان للحرب؛ فقد أعلن أمام قادة جيشه أن ابنه الذي كان يسمى أنطونيوس أصبح الآن يحمل لقب القيصر وهو ولي عهد الإمبراطورية. ويقال إنه قد توصل إلى هذا القرار بعد تردد، إذ إنه تنبأ أن الحرب الأهلية سوف تتبع هذا القرار ولكن قيل أن جوليا هي التي أقنعته لأنها أرادت أن يكون ولدها هو وريث الإمبراطورية.

ليس من الممكن وجود وريثين للإمبراطورية. هذا ما علمه ألبينوس وإنه قد عزل من ولاية عهد الإمبراطورية ولذلك فعليه عدم التردد والعمل حالاً. فجمع كل القوى المتوافرة لديه ونقلهم إلى غاله حيث كان بعض حلفائه مستعدين للانضمام إليه. وعندما قاد سبتموس جيشه من حوض الدانوب ترك قسماً منه للحيلولة دون أي اعتداء من منطقة الحدود. ولكن ألبينوس نقل جميع الفرق الموجودة في بريطانيا وبذلك أزال كل مظاهر الدفاع الممتدة حول السور من نهر

التاين إلى سولوي Lolway التي كانت تحمي المنطقة من هجمات الكاليدونيين المتوحشين. ولهذا فقد تواترت حوادث الهجوم والتخريب في تلك المنطقة في السنوات التالية من نهب وقتل وغيره.

توتر الجو في الإمبراطورية من شبح الحرب الأهلية القادمة وليس فقط في بريطانيا وكان عام 195 يميل إلى الرحيل، وكانت العادة في روما إقامة الحفلات وسباق العربات في مسارح ماكسموس قبل عيد رأس السنة. وقد تجمهر حشد كبير لهذه المناسبة ولكن بدلاً من التصفيق للفرق الرابحة ساد الوجوم والسكون على الجماهير. وأخيراً حل موعد السباق الرئيس في ذلك اليوم. وكانت العربات مستعدة للبدء في السباق. وقبل دور الإشارة، وقف الجمهور وأيديهم متجهة إلى السماء يدعون المشيئة الإلهية الرومانية بأن تجنبهم الكارثة. وبعدها بدأ الجميع يصفقون بأيديهم ببطء ويصيحون: متى ستنتهي هذه الحروب؟ وقد مضى وقت طويل قبل أن يهدأ الجمهور ويُستأنف السباق.

وضع أصدقاء ألبينوس اللوم على سبتموس لكونه سبب النزاع واتهموا سبتموس بالازدواجية عندما عين ابنه ولي عهد الإمبراطورية سَمَّاه بالقيصر في الوقت الذي وهب به هذا اللقب لألبينوس، وقد كان لكل فريق مبرراته التي يصر عليها ويعتقد أنه على حق. أما الرأي العام الذي لم يكن يهمه سوى الخوف من الفوضى، فقد كان الجميع مستعدين لتأييد ودعم المنتصر والشخص ذي القوة المناسبة لإرجاع السلم والاستقرار. ارتأى سبتموس أن من الأفضل أن يزور روما شخصياً ليظهر نفسه للملأ بأنه الإمبراطور الشرعي ويعيد الطمأنينة والسلطة، فترك جيشه يسير على حدود الدانوب وسار لوحده إلى روما.

وعندما خاطب مجلس الشيوخ لم يحاول كتم غضبه. فقد ذكَّر مستمعيه بالتسامح الذي أظهره لهم عند خضوعهم لديديوس خوفاً من الحرس البريتوري، ولم يتطرق إلى ذكر أعوان نيجر بشر إذ إن الخصام كان بينه وبين نيجر شخصياً. أما الآن فالظروف والمواقف قد اختلفت فقد كان نيجر عدواً كشف نفسه أما ألبينوس فهو زميل متآمر من خلف ظهر الإمبراطور وضرب بعرض الحائط ذلك السلم والاستقرار والأمل بالمستقبل، بل حكم على الإمبراطورية بخوض الحرب الأهلية من جديد، وهكذا كان هذا الخطاب إنذاراً لأعضاء مجلس الشيوخ بالانتقام ولاسيما المؤيدين لخصمه. في حالة نجاح سبتموس في الحرب القادمة كان ألبينوس يتقدم عبر بلاد الغال ومعه جيشه الذي جلبه من بريطانيا وإمدادات أتت إليه من الولايات البعيدة حتى من إسبانيا. وقد استطاع كسر أحد القواد الذين تركهم سبتموس عند ذهابه إلى روما وعند وصول سبتموس استلم القيادة. ولكن من المضحك المبكي أن نجد سبتموس سيفيروس نفسه يلجأ للاستعانة بشراذم صغيرة من العصابات لمساعدة جيشه الكبير، الأمر الذي يدل على الفوضى التي كان يعاني منها الجيش. ويذكر (ديو) قصة معلم مدرسة من روما حدث أن كان موجوداً في بلاد غاله في عطلته، فتظاهر أنه أحد أعضاء مجلس الشيوخ وقد أتى

لجمع الفرق العسكرية. وقد جمع عدداً من المتطوعين وقادهم ضد ألبينوس في عدد من الهجمات الجسورة وإنه هاجم إحدى فرق ألبينوس واستولى على الأموال المخزونة. سُرَّ سبتموس من هذا الأستاذ وصدق أنه من أعضاء مجلس الشيوخ وكافأه. ولكن عندما انتهت الحرب كشف ذلك المعلم نفسه وقال إن ليس له من سلطة إلا على طلاب مدرسته. ولقد سُرَّ سبتموس من جسارته وصراحته وعرض عليه مقعداً في مجلس الشيوخ لإصلاح الأمور ولكن كل ما طلبه ذلك الأستاذ هو بيت هادئ يعيش به في الريف دون ضجة أو جلبة مع بعض التعويضات المالية التي تكفي لحاجاته.

استمرت الحرب الأهلية في غاله طوال الصيف والخريف ولم يلتق الجيشان في المعركة الحاسمة في لوجدونوم إلا في شباط عام 197، وكانت هذه المدينة هي التي يسكن فيها سبتموس في أول عهده بالزواج. قارب ألبينوس الظفر واستعمل التكتيك العسكري الذي استعمله روبرت بروس ضد الإنكليز في معركة بانوكيون Bannockburs بعد قرابة ألف عام؛ فقد حفر حفراً أمام خط المعركة وغطى تلك الحفر بأوراق الشجر والخشب الخفيف. تقدم رجاله إلى ما وراء تلك الحفر ثم تقهقروا، وهكذا وقع الجيش المقال بالفخ فقد سقط الجنود والخيول في الحفر وفقد سبتموس حصانه وهرب ماشياً على قدميه بعد أن أخفى ثوبه الأرجواني خوفاً من افتضاح أمره.

لم تُخْفَ نتيجة تلك المعركة وأُشيع أن سبتموس قد قتل، ولكن حالما انتشرت الفرق البريطانية وهي ثملة بالنصر إذا بقوة نجدة تهاجمهم من الجناح. كان قائد تلك القوة يرغب في قتل سبتموس ليحل محله ولكن تدخله المفاجئ قلب الأمور رأساً على عقب. فالمنتصرون أُخذوا على حين غرة والمهزومون استعادوا نشاطهم وروحهم المعنوية ورجعوا إلى القتال، وكان بينهم سبتموس الذي كان دون حصان أو رداء فأحضر له جنوده حصاناً فركب في طليعة جنده مسرعاً إلى لوجدونوم بينما ظل الضابط المزدوج الميول والشخصية واقفاً بيأس لا يدري ماذا يفعل.

حدثت مذبحة عظيمة وامتلأ السهل بالجثث. ولكن ألبينوس هرب حفاظاً على حياته واختبأ في أحد الأكواخ على ضفاف الرون ولكنهم لم يتركوه سالماً مدة طويلة، فقد خانه بعض المخبرين. وعندما أتى الجنود لإلقاء القبض عليه اتبع مثال (كاتو) وغيره من النبلاء الرومان وانتحر. وقد مات وهو يردد نشيده المحبوب «إن الأسلحة لا معنى لها»، وأمر سبتموس بقطع رأسه وأرسله إلى روما ليعرض أمام الجمهور خارج مجلس الشيوخ على رأس حربه.

لقد كان النصر الذي أحرزه سبتموس في لوجدونوم جواباً عن ذلك السؤال المحير وهو «متى تنتهي هذه الحروب»؟ ولقد رحب الجميع بحرارة بسبتموس عند وصوله ظافراً إلى روما، وكانت جماهير الشعب تهتف لأجل السلم وترحب بذلك الإمبراطور الذي أصبح يحكم دون منافس. ولكن لا شك أن ألبينوس كان

سيسمع الهتافات نفسها لو انتصر هو في الحرب. ومع ذلك فقد كان سبتموس متسامحاً كعهده، وكان تواقاً للاحتفاظ بولاء الشعب وهو يعلم حق العلم أن الاعتماد على مجلس الشيوخ لا فائدة ولا جدوى منه.

والآن حان وقت انتقامه من أعدائه. إذ بين الغنائم التي كسبها جيشه في لوجدونوم وجد كيس فيه مجموعة من الرسائل التي أرسلها أعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم من الأعيان والشخصيات إلى ألبينوس تكشف مدى التورط في تلك المغامرة، حَكَمَ سبتموس بالإعدام على الكثيرين بسبب تلك التهم، بمن فيهم سالبيسيانوس Salpicianus وهو عم بيرتناكس ووالد زوجته وهو أحد المشتركين في عملية المزاد العلني للإمبراطور، والذي تفوق عليه ديديوس إذ دفع أكثر. وكان بين الضحايا زوجة نيجر وأطفاله لأسباب لم تعرف. ومع أن سبتموس كان شرساً في غضبه، إلا أن أعماله لم تخل من التمييز. فقد قيل إن من بين جماعة مجلس الشيوخ الذين حوكموا أُعدم تسعة وعشرون وأُطلق سراح خمسة وثلاثين بعد العفو عنهم.

ومنذ أعاد أغسطس تشكيل الدستور الروماني وذلك بجعل شكل الحكم إمبراطورياً بدلاً من أن يكون جمهورياً ظل مجلس الشيوخ الروماني يمارس نفوذاً متزايداً يوماً بعد يوم في الأمور السياسية. لقد تحطم ذلك الحلم الذي كان يحلم به الشيوخ بأن يستلم الحكم إمبراطور من أصل نبيل، وذلك في المعركة التي انكسر بها ألبينوس على نهر الرون ولم يعد سبتموس يخشى شيئاً الآن من المجلس بعد فوزه الساحق. وبعد أن انتهت الموجة الأولى من الإعدامات التي صفت وأنهت معظم أعدائه السابقين الخطرين عاد لوضع الغرامات الثقيلة على مقترفي الذنوب البسيطة، ومع ذلك فقد كان حريصاً على إحياء حالة الخوف والفزع بين الموظفين الكبار بأن ذكر للملأ أنه أخو كومودوس ما دام هو الابن بالتبني لماركوس أوريليوس. وهكذا أراد أن يلمح لعهد الإرهاب الذي قاسى منه أعضاء مجلس الشيوخ الأهوال في زمن كومودوس.

مضى قرابة أربع سنوات على اغتيال كومودوس ولم يكن هذا الوقت كافياً لنسيان الناس أن إمبراطورهم الجديد قد ضلع في المؤامرة ضد كومودوس وإنه كان صديقاً من أصدقاء لاتيوس وايكليكتوس ومارشيا. ولهذا فقد كان هنالك نوع من عدم الثبات في موقفه الجديد مما جعل النقاد يتوقفون عند هذه النقطة ويستفيدون منها. إذ عندما اقترح أعضاء مجلس الشيوخ عزل كومودوس اتهمه أحد الشيوخ بأنه وضع هيبة الإمبراطور في الوحل عندما ظهر شخصياً في الحلبة لقتل الوحوش بيديه. وقد كان سبتموس قد عبر عن رأي مماثل وهو لا يستطيع إنكار ذلك. كان لديه شيء من حضور البديهة وسرعة الجواب عندما قال: «إن الوحوش التي قاتلها كومودوس خضعت للرمح وليس لسحر النساء»[1].

١- استعمل المؤلف كلمة phallus وتعني باللاتينية الجهاز التناسلي للرجل أو المرأة.

وكان في قوله هذا يلمح إلى فضيحة حدثت قبل يوم في أوستيا Ostia حيث وجد أحد أعضاء مجلس الشيوخ وكان قنصلاً سابقاً يمرح ويصخب مع فتاة تنكرت بشكل نمر. وقد تناقل الناس تلك الملاحظة لمدة طويلة وكانوا يقلدون لهجة الإمبراطور الإفريقي عند تلاوتها.

obeikandl.com